ووثائق وصحف الشيوعيين كافة، أي موقف في أي قضية تعارض، أو اختلاف، مع الموقف السوفياتي. ومن هذه الزاوية، كان المثل الذي يضرب عنهم بأنهم يرفعون مظلاتهم عندما يسقط المطر في موسكو يحمل قدراً كبيراً من الحقيقة. باختصار، لم يكن الشيوعيون الفلسطينيون بحاجة الى التحوّل، فكرياً وسياسياً، نحو السوفيات؛ وفي الوقت عينه، لم يكونوا بالحجم والنفوذ اللذين يمكّناهم من التأثير في الخط السياسي والايديولوجي الذي كان يتفاعل داخل قوى اليسار الفلسطيني بحيث يمكن جذبه باتجاه ناصية الايديولوجية والسياسة السوفياتيين. وكان من المفارقات التي لا تخلو من دلالة ان يكون ياسر عرفات، الزعيم الوطني غير الماركسي، هو الذي فتح بوّابة العلاقة بين قوى اليسار الفلسطيني وبين السوفيات؛ هذه العلاقة التي شكّلت احد أهمّ عناصر التأثير في تطوّر الموقفين، الفكري والسياسي، للجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية باتجاه السوفيات. فكيف جرى هذا المسار؟

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

ظل اعتقاد الجبهة الشعبية، بعد أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠، راسخاً بضرورة التحوّل الى حزب ماركسي ـ لينيني، وضرورة ان يكون هذا الحزب في مقدّم قيادة المقاومة الفلسطينية، لأن من شأن ذلك ان يقلّل من «سلبيات المقاومة»، ويجعلها في وضع أفضل من الوضع الذي تعيشه. «ان مثل هذه القيادة وهذا الحزب كفيلان بأن يضعا الجماهير في صورة الاوضاع الحقيقية التي تحيط بها؛ وضعاً يجعل من تعبئتها، وحشدها، أكثر فعالية وقدرة على الصمود، وأقرب الى احتمالات النصر على الاعداء»[٥٨].

وعلى المستوى السياسي، استمرت «الشعبية» في تبنّي خط سياسي متشدّد، فطالبت باسقاط النظام في الاردن، لأن ذلك «اصبح مطلباً تاريخياً لجماهير شعبنا الطامحة الى الحرية والتحرر». ودعت الى وحدة الحركة الوطنية الاردنية، وترجمتها. وشدّدت على مناهضة كافة «المشاريع التصفوية الاستسلامية ومشروع الدولة الفلسطينية». ودعت الى تصعيد «العمل داخل الارض المحتلة»، وتمسّكت بشعار «ضرب المصالح الامبريالية والصهيونية خارج الارض المحتلة»، انطلاقاً من ان هذه المصالح «تشكل، في مجموعها، الشرايين التي تزوّد اسرائيل بدم حياتها، والرئة التي تمتلك، من خلالها، أسباب قوّتها، ومن واجبنا ان نتوجه الى ضرب وقطع هذه الشرايين»[٥٩].

كانت هذه المواقف السياسية، وغيرها، تشكّل احد الكوابح الهامّة التي كانت تحول دون تقدّم العلاقة بين السوفيات والجبهة الشعبية. فعلى الرغم من التراجع الواضح للنزعات الماوية والجيفارية، خلال سنوات السبعينات، داخل صفوف «الشعبية»، الاّ ان «الشعبية» لم تغادر مواقفها القديمة من السوفيات. وفي احدى وثائقها (١٩٧١)، قوّمت الموقف السوفياتي من المقاومة الفلسطينية على النحو التالي: «كان السوفيات، في بداية الامر، يؤيدون حركة المقاومة تأييداً كان يزداد تدريجياً مع نمو المقاومة وبداية صيرورتها قوة ضاغطة على اسرائيل من الممكن ان تكون عاملاً مساعداً لتطبيق الصيغة السوفياتية للتسوية في المنطقة. ولكن المقاومة، في الفترة الاخيرة (نهاية ١٩٦٩ وبداية ١٩٧٠)، بدأت تتجاوز الحدود المقدّرة لها؛ اذ أصبحت تهدّد، اجمالاً، امكانية التسوية السياسية للصراع العربي ـ الاسرائيلي، فضلاً عن ان تهديدها للنظام الرجعي في الاردن قد يستدعي تدخّل اميركا في المنطقة، الامر الذي يحمل امكانية تحوّل المنطقة الى فيتنام جديدة، ممّا ينسف كافة الاسس التي تقوم عليها السياسة السوفياتية اليوم، بالنسبة الى المنطقة، وبالنسبة الى العالم بشكل عام. ومن هنا، ومع اقتراب امكانية التسوية السياسية، في ضوء موقف ج.ع.م. [الجمهورية العربية